٢

ابن بطوطة ودوافعه إلى الرحلة

قدَّمت فى مدخل هذا الكتاب فكرة عامة عن رحلات ابن بطوطة، وألقيت نظرة جامعة عليها وعلى قدرها كعمل جليل يعتبر عَلَماً من معالم التاريخ الحضارى العربى.

وكان ينبغى أن أخصِّص هذا الحديث الثانى عن الرجل نفسه وما نعرف من أحداث حياته وخصائصه المميزة ، وسأكتفى هنا بالقدر الضرورى من المعلومات عنه تاركاً بقية التفاصيل للرحلة نفسها ؛ فإن ابن بطوطة يتحدث فى ثناياها عن نفسه وما وقع له ، ويعرض لنا أفكاره وآراءه وأنظاره فى الدنيا والناس، ولهذا فإننى أُوثر أن نوجز هنا ما لا بد من معرفته عنه قبل قيامه بالرحلة تاركين القارئ يستبين خصائص الرجل وفلسفته فى الحياة من خلال التفاصيل التى يذكرها فى سياق أوصاف رحلته .

مولد ابن بطوطة ونشأته

ومن أسفٍ أن معلوماتنا عن نشأة ابن بطوطة وبيته قليلة جدًّا ؛ لأن أحداً من أصحاب كتب التراجم لم يقدم لنا شيئاً شافياً عنه وكل ما نستطيع قوله هو أنه ولد بحسب ما ذكره ابن جُزَىّ فى مدينة طنجة فى يوم الاثنين السابع عشر من شهر رجب سنة ٧٠٣ هـ / الرابع والعشرين من فبراير سنة ١٣٠٤م ، لأب من أوساط الناس يسمَّى عبد الله بن محمد بن إبراهيم

اللواتى الطنجى فى درب صغير يحمل الآن اسمه فى تلك المدينة الجميلة طنجة ، وهى جوهرة من جواهر بلاد الإسلام جمالاً وإشراقاً.

ولكن النفس تحزن عندما تقع العين على ضريح أبى عبد الله محمد بن عبد الله «ابن بطوطة» فى طنجة ؛ فهو ضريح يقوم فى زاوية - أى : مسجد صغير - قد لوَّنوا قبته وشيئاً من مئذنته باللون الأخضر .

ولقد زرته أكثر من مرة قرب سوق أَحْرَضَان فى طنجة ، وصلَّيت فى زاويته ، ودعوت الله أن تتاح لى فرصة القيام بحقه . وكنا قد شرعنا بالفعل فى تنظيم ندوة علمية فى بلده هذا سنة ١٩٦٩م ، ووافقت الحكومة المغربية على ذلك ، ولكن الظروف لم تأذن فى تحقيق هذا الأمل .

ويقول ابن بطوطة نفسه فى سياق حديثه أنه ينحدر من بيت فقهاء تولَّى الكثير من أفراده القضاء ، ويذكر فى أثناء رحلته فى الأندلس أنه لقى فى مدينة رُنْدَة أحد أعمامه وكان قاضياً ؛ فهو - إذن - ينحدر من أسرة من مساتير أهل العلم والفقه ، ولا يبدو من حديثه أن أباه كان من المياسير ، وعلى أى حال فقد كان أفراد أوساط الفقهاء يعيشون فى سعة ، ويتمتعون بتقدير كبير من الناس فى عالم الإسلام كله فى تلك العصور .

أما اسم « ابن بطوطة » فليس جزءاً من اسمه ، وإنما هو شهرته، ومازال ذلك الاسم معروفاً إلى اليوم فى المغرب .

ولا بد أن أبا عبد الله محمد «ابن بطوطة» قد درس على طريقة أمثاله من الشبان فى ذلك العصر : حفظ القرآن ، وبدأ يدرس على الشيوخ؛ لكى يكون فقيهاً كأبيه وبقية النابهين من أهل بيته ، ولكنه لم يتمّ دراسته ، لأن سن الواحدة والعشرين التى خرج فيها للرحلة تدل على أنه لم ينتظر حتى يستكمل دراسة الفقه ، وكانت هذه الدراسة وقتها تطول فلا يفرغ الشاب من دراسته له إلا فى حدود الثلاثين .

وجوه تشابه بين ابن بطوطة والشريف الإدريسى

والواضح أن رغبته فى السفر والجولان أعجلته عن إتمام الدراسة ، وهو يشبه فى ذلك الشريف الإدريسى الذى ولد فى سبتة المجاورة لطنجة ، فهو الآخر لم ينتظر حتى يكمل دراسته فى بلده ، بل خرج للرحلة وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، وكلاهما أكمل دراسته على الطريق، وقد كان الكثيرون من طلبة العلم يفعلون ذلك ، ولكن الفارق بين الشريف الإدريسى وابن بطوطة من ناحية ، وبقية طلبة العلم التقليديين من ناحية أخرى هو أن كِلَا الرجلين - الجغرافىّ والرحَّالة- لم يخرجا للدراسة على شيوخ بعينهم ؛ أى: لم يتمَّا دراستهما على طريقة منهجية ؛ أى أنهما لم يجاورا الشيوخ لإتمام سماع أصول الفقه وعلوم الدين؛ ليحصلا على الإجازات الدراسية ؛ وإنما سمعا ما تيسَّر لهما سماعه دون حرص كبير على إتمام الدراسة ؛ لأنهما فى الحقيقة لم يريدا أن يكونا فقيهين ، بل كانت لهما فى الحياة مطالب واهتمامات أخرى .

الدافع الأول لابن بطوطة على الخروج للرحلة

فماذا كان مطلب ابن بطوطة ؟ وماذا كانت اهتماماته ؟ إنه يحدثنا عن ذلك فى مطلع رحلته فيقول : « وكان خروجى من طنجة مسقط رأسى فى يوم الخميس الثانى من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمداً حج بيت الله وزيارة قبر الرسول ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، منفرداً عن رفيقٍ آنَسُ بصحبته ، ورَكْبٍ أكون فى جملته ؛ لباعث على النفس شديد العزائم، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن فى الحيازم ، فحزمت أمرى على هجر الأحباب من الإناث والذكور ، وفارقت وطنى مفارقة الطيور للوكور ، وكان والداى بقيد الحياة ، فتحمَّلت لبعدهما وَصَباً ، ولقيت كما لقيا من الفراق نَصَباً، وسِنِّى يومئذٍ ثنتان وعشرون سنة » .

وإذن : فقد كان دافعه إلى الخروج هو الرغبة فى أداء فريضة الحج ، وهذا صحيح ، ولكن ما الذى جعله يتعجل الخروج على هذا النحو دون أن ينتظر موعد خروج الرَّكْب لكى يسير فى جملته ؟

لقد كانت عادة الخارجين للحج فى تلك العصور أن يخرجوا فى قوافل خاصة بالحج منظَّمة تنظيماً دقيقاً ، وفيها ناس متخصصون فى كل ما يتصل بالحج من معرفة بالطريق ومراحله وأوقاته ، ومزوَّدة بكل مطالب الحُجَّاج، وكان هذا الرَّكْب يسمَّى فى المغرب باسم «رَكْبِ الحاجِّ المغربىّ» .

ولدينا قصيدة مشهورة عن ذلك الركب منظومة على طريقة الألفيات تتضمن كل ما لا بد للحاج منه من مال وطعام وزادٍ وآنية ، حتى الإبرة والخيط لهما ذكر فى هذه القصيدة الطريفة . وكانت السلطات تزوِّد ركب الحاج بالكتب والتوصيات والحراس على طول الطريق ، فما الذى جعل هذا الشاب يتعجل الأمر ، ولا ينتظر موعد خروج ركب الحاج المغربى ؟

الشـــوق إلى رؤيـــة الدنيـــا والناس

لا تعليل إلا أن دافعه إلى ذلك كان هذا الشوق إلى رؤية الدنيا والناس؛ فقد ولد هذا الرجل رحَّالة بطبعه ، ومع أنه يقول - إن دافعه للرحلة هو الحج - فإننا نضيف إلى ذلك أنه كان وراء هذا الدافع شوقٌ آخر شديد إلى المعرفة . وستلاحظ ذلك على طول رحلته .

وهذه الظاهرة - ظاهرة الشوق إلى رؤية الدنيا والناس - نجدها عند كبار الرحَّالة فى أدبنا الجغرافى الفنى ؛ فالمقدسى أيضاً يقول فى فاتحة كتابه إنه خُلق مولعاً بالتنقل والمغامرة والتجربة ومعرفة أحوال الدنيا ؛ وكذلك المسعودى فى تقديمه لـ « مروج الذهب » ، وأبو حامد الغرناطى فى حديثه فى «تحفة الألباب» .

ولكننا ينبغى ألَّا نحسب أنه خرج للرحلة وحده - أى : منفرداً بنفسه - كما يظن بعض الناس ، فإن ذلك كان مستحيلاً فى تلك العصور ، وقوله - أنه خرج منفرداً عن رفيق يأنس بصحبته وركب يكون فى جملته - معناه أنه لم يكن له فى الجمع الذى سافر معه رفيق من معارفه وأهل بلده أو قرابته ؛ فقد كانت تلك هى عادة الناس .

أما ابن بطوطة فقد خرج مع ناس لا يعرفهم ، ولم يخرج فى ركب الحاج،

ولكنه خرج فى رفقة ، أى : جماعة مسافرين ، ولقد التحق وهو فى الطريق بركب الحاج التونسى ، وبدَّل رفقته مرة بعد مرة ؛ لأن اهتمامه برؤية الناس والغرائب كان يضطره إلى التخلف عن ركبه أو رفقته ؛ ليقضى مأربه ، ثم يلحق بأى رفقة أخرى ويمضى فى سبيله .

وفى بعض الأحيان نجده يغير اتجاهه تماماً ، ويتجه إلى ناحية أخرى غير التى كان يقصد إليها ؛ لأن الهدف الرئيسى عنده كان الرحلة فى ذاتها ، وكل البلاد عنده سواء ؛ فإذا كان قاصداً مصر مثلاً واتجه به المسير إلى الشام لم يأسف لذلك أو يفقد دافعه إلى المسير ، بل نجده سعيداً بهذا التغيُّر مقبلاً على رؤية معاهد الشام دون أن يفارقه الشوق أو الابتهاج.. !

قوة بدنه واحتماله

ولقد أعان ابن بطوطة على القيام بهذه الرحلات بدنٌ قويٌّ يتحمل المتاعب، ويقاوم الأمراض بصورة تدعو إلى العجب ؛ فقد كان يأكل أى طعام - عدا المحرَّمات - دون أن يشكو مرةً سوء هضم أو تعب ، ما عدا مرة واحدة، وكان لا يتخير طعاماً بل يأكل ما يجد ، وفى أحيان كثيرة نجده يصوم عن الطعام أياماً ؛ ليصحَّ بدنه إذا ألمَّ به سقم ، وقد مرض أكثر من مرة فى أثناء رحلاته ، وأصابته الحمى مرة بعد مرة ، وآذاه دوار البحر حتى كاد يهلك ، ولكنه كان يخرج من هذه المتاعب سليماً بفضل ما آتاه الله من صحة وقوة بنيان، وهو يحدثنا عن كثير من أصحابه ماتوا من الأمراض أو الطعام الفاسد ، ونجا هو من الموت برغم مشاركتهم فى أكل هذا الطعام ؛ لأنه كان قويَّ البدن ، وقد رزقه الله مناعة يسَّرت له النجاة من المهالك أكثر من مرة .

معرفته بالطب والأعشاب

وكانت له بعض المعرفة بالطب والأعشاب التى كان الناس يتداوون بها من الأمراض الشائعة ، فكان شديد الحرص على أن يكون له زادٌ منها ، وكان يداوى نفسه بنفسه ، وربما داوى غيره .

وخلاصة القول فى هذا المجال أن الرجل كان مهيَّئاً - نفسيًّا وجسديًّا - للمطلب العسير الذى أراده ، وأعانه الله عليه فاستمتع بما أراد ، وأمتعنا معه.

ومن لطائف حديثه فى رحلته أنه كان يذكر كل شىء حتى الصداع الذى يلمُّ به أو المغص الذى يصيبه أو الرمد الذى يشكوه ؛ فيزيدنا ذلك استمتاعاً بقراءته ، فنحن مع محدِّث بارع، وحديثه كله مفيد ، حتى حديثه عن أمراضه وأوجاعه عظيم الفائدة ؛ فهو يعطينا فكرة عن الأدوية وأساليب التداوى فى أيامه ، ويكشف لنا عن حقيقة أكبر، وهى أن مستوى العلاج لم يكن منخفضاً كما نظن ، فقد كان للناس معارف طبية كثيرة جدًّا، وكانت أدويتهم- على بساطتها - نافعة ناجعة ، وهذا جانب من جوانب الحضارة الإسلامية عظيم .

* * *